١٥ رمضان ٤ مارس

بين العرَض والمرَض

المقدمة

في بدايات القرن التاسع عشر، وقبل تطور نظرية الجراثيم، واجه الأطباء العديد من الأمراض الوبائية دون فهم واضح لأسبابها البيولوجية. ونتيجة لذلك، انصبّ الاهتمام العلاجي على الأعراض الظاهرة لدى المرضى، إذ كان تحسّن العرض أو اختفاؤه يُفسَّر على أنه دليل على السيطرة على المرض نفسه. فالسعال يُعالَج بوصفه المشكلة الأساسية، والحمّى تُخفَّض باعتبارها العامل الأخطر، دون إدراكٍ كامل للآليات المرضية الكامنة خلفها.

وتعرض هذه المقالة مثالين تاريخيين يوضحان كيف أدى التركيز على الأعراض إلى تبنّي ممارسات علاجية اعتُقد في وقتها أنها تستهدف المرض، بينما كانت في الواقع تتعامل مع مظاهره الخارجية فقط.

العلاج بالثلج

شهدت الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر انتشار الحمى الصفراء، وهي من أكثر الأمراض فتكًا في ذلك الوقت. وتميزت الحالة السريرية بارتفاع شديد في درجة الحرارة وظهور اليرقان، وهما من أكثر العلامات وضوحًا للمراقب الطبي آنذاك. وفي ظل غياب المعرفة بالمسبب المرضي وافتقارهم إلى وسائل علاج فعّالة، ظهرت محاولات للسيطرة على الحمى باعتبارها العامل الرئيس في مسار المرض.

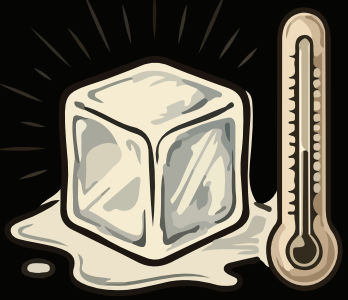

ومن ابرز هذه المحاولات، والتي توصل لها الطبيب (John Gorrie)، هو استخدام الثلج لتبريد المرضى، حيث كانت توضع كتل ثلج قرب الأسرّة أو تُعلَّق فوقها مع فتح النوافذ لتمرير الهواء البارد إلى المريض. استند هذا الأسلوب إلى افتراض أن خفض حرارة الجسم قد يوقف تطور المرض، وهو تصور يعكس التركيز على العرض الأكثر وضوحًا بدلًا من السبب غير المرئي، وقد أسهمت هذه المحاولات لاحقًا في تطوير تقنيات التبريد الميكانيكي التي تُعدّ من البدايات المبكرة لمفهوم التكييف.

غير أن تطبيق هذا العلاج

واجه تحديات عملية كبيرة، إذ كان الحصول على الثلج عملية مكلفة ومعقدة في ذلك الزمن قبل انتشار تقنيات التبريد الحديثة، بل كانوا يستوردونها من ولايات و بلدان أخرى بطرق نقل غير مضمونة، فقد يذوب الثلج في منتصف نقله إلى المستشفى، ولُقّب وقتها الثلج بلقب «الذهب الأبيض» وقد أدى ذلك إلى ظهور جهود لتطوير وسائل تصنيع الثلج وتخزينه، وفي محاولة لتوفير هذا المورد الذي عدّ عنصرًا علاجيًّا مهمًا في تلك المرحلة.
وقد ازداد الاهتمام بالثلج في تلك الفترة مع توسع تجارته عالميًّا، حتى لُقّب أحد أبرز تجّاره بلقب «ملك الثلج».

العلاج بالهواء

نستطيع أن نرى نمط تفكير مشابه في التعامل مع الأمراض التنفسية، وأبرزها السل، خلال القرن التاسع عشر، فقد شهد العالم ثورة صناعية لم يسبق لها، واكتظت المدن بالمصانع وازدحمت بالسكان، ولاحظ الأطباء أن المرضى الذين يعيشون في هذه المدن الصناعية كانوا يتدهورون صحيًّا بوتيرة اسرع مقارنة بمن يقيمون في المناطق الريفية أو الجبلية خارج المدن، وربطوا هذا التدهور بجودة الهواء، حيث انه أنقى وأقل تلوثًّا خارج المدن.

ومن هذه الملاحظة نشأت قناعة بأن للبيئة المحيطة دورًا مباشرًا في مسار المرض، فبدأت تظهر مصحات متخصصة يقضي فيها المرضى فترات طويلة في الهواء الطلق، أحيانًا حتى في منتصف الشتاء البارد، وتعريضهم لأشعة الشمس باعتبارها عناصر علاج أساسية، إضافةً إلى تغذيتهم بكميات كبيرة من الطعام، حتى إنهم ظنوا أن المرضى يجب أن يحصلوا على ٦٠٠٠ سعرة حرارية في اليوم.

ومع أن الطبيعة المعدية لمرض السل أصبحت معروفة في أواخر القرن نفسه، إلا أن الخيارات العلاجية لازالت محدودة في غياب أدوية فعالة قادرة على القضاء على المسبب الفعلي، لذلك استمرّ التركيز على تعديل الظروف المحيطة بالمريض، كتحسين جودة الهواء وأشعة الشمس. ويعكس هذا التوجه كيفية تعامل الطب في تلك المراحل مع ما كان متاحًا للملاحظة والتأثير.

ولم يكن هذا النهج ناتجًا عن تصورات عشوائية بقدر ما كان محاولة عقلانية للاستفادة من المؤشرات الظاهرة؛ فحين يلاحظ الطبيب تحسن بعض المرضى في بيئات معينة، يصبح من المنطقي افتراض أن تلك الظروف قد تحمل قيمة علاجية. وهكذا تحولت عناصر مثل الهواء النقي وأشعة الشمس إلى مكونات يُنظر إليها بوصفها جزءًا من العلاج.

فكرة أن نوعية الهواء قد تحمل أثرًا صحيًا بقيت حاضرة حتى مع تطور المعرفة الطبية، وهو ما يظهر اليوم في انتشار منتجات تجارية تُسوَّق باعتبارها «هواءً نقيًا» أو «هواءً جبليًا». ورغم أن هذه المنتجات لا تستند إلى أدلة طبية تثبت فعاليتها في علاج الأمراض، فإنها تعكس استمرار التصور القديم بأن تعديل ما يستنشقه الإنسان قد يكون مدخلًا لتحسين حالته الصحية.

ضمن حدود المعرفة

يكشف هذا الامتداد التاريخي لفكرة «معالجة ما يمكن ملاحظته» عن جانب مهم في تطور الممارسة الطبية، وهو أن التقدم العلمي لا يحدث دفعةً واحدة،

بل عبر مراحل متراكمة من الفهم والتفسير. ففي غياب القدرة على استهداف السبب المباشر للمرض، يصبح التعامل مع مظاهره أو مع العوامل المحيطة بالمريض خيارًا عقلانيًا ضمن حدود المعرفة المتاحة. بل إن بعض هذه الممارسات قد يحمل بالفعل أثرًا جزئيًا مفيدًا، حتى لو لم يكن موجّهًا نحو السبب الحقيقي؛ فخفض الحرارة قد يخفف معاناة المريض، وتحسين جودة الهواء قد يدعم الوظائف التنفسية، وهو ما قد يخلق انطباعًا بفعالية العلاج نفسه. ومن هنا يمكن فهم كيف تتشكل القناعات الطبية في مراحل معينة من التاريخ، ليس بوصفها أخطاءً مطلقة، بل بوصفها محاولات تفسيرية تعتمد على أفضل ما توفر من ملاحظات في ذلك الزمن.

الخاتمة

تكشف هذه الأمثلة التاريخية أن التعامل مع المرض لم يكن يومًا معزولًا عن حدود المعرفة المتاحة في زمنه. فعندما يكون السبب غير مرئي، يصبح التركيز على ما يمكن ملاحظته والتأثير عليه خيارًا منطقيًا، سواء كان ذلك حرارة الجسد أو جودة الهواء المحيط. وقد تبدو بعض هذه الممارسات اليوم غير قابلة للتصديق، لكنها تذكّر بأن ما نعدّه بديهيًا في الطب الحديث هو نتيجة تراكم طويل من المحاولات والتفسيرات التي سبقت فهمنا الحالي للمرض، وهي نقطة تستحق التأمل.

المـــــــراجـــــــع:

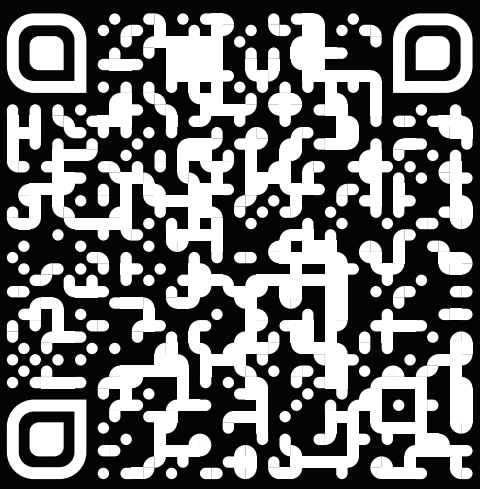

للانتقال إلي المراجع، امسح الباركود أو انقر عليه

بـــقـــلـــم: مساعد العتيبي
تـــدقـــيـــق: عبدالله الخزيم
تـــصـــمـــيـــم: مـــرام الحقباني